سياسة الإستدمار الفرنسي في الصحراء الإفريقية
من الاستعباد و التجويع إلى الفرنسة و التمسيخ

الأستاذ/ عبد الحكيم بن تركية
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

لعبت الصحراء الكبرى بما فيها بلاد الهقار و التاسيلي دورا بارزا في التواصل الإنساني الحضاري والتبادل التجاري بين الشمال و الجنوب ،فكانت معبرا لحضارة البحر الأبيض المتوسط و الحضارة الإسلامية على الخصوص قبل وصول النخاسين الأوروبيين[1] في منتصف القرن الخامس عشر ميلادي .

الصحراء الكبرى عامل تواصل إنساني وحضاري :

لعبت الصحراء الكبرى دورا كبيرا منذ القديم في التواصل الإنساني الحضاري والاقتصادي ،فكانت معبرا للأفكار وعلى الخصوص منذ وصول الإسلام إلى شمال أفريقيا الذي عمل على تدعيم هذا التواصل وازدهاره مع مرور الزمن حضاريا وثقافيا واقتصاديا.فالمبادلات التجارية بواسطة سفينة الصحراء (الإبل)ازدهر وعلى الخصوص منذ الفتح الإسلامي للمغرب على يد موسى بن نصير للمغرب الأقصى سنة **90هـ/708م** فابن خلدون **(732-808هـ/ 1332- 1406 م)**في تاريخه يذكر أن القوافل التي كانت تمر بالهقار بلغ عدد جمالها اثني عشر ألف (**12000**)جمل في أحيان كثيرة .[2]

يضاف إلى ذلك أن المنطقة كانت معبرا للحجاج من الجنوب نحو الشمال ، إلى جانب طلبة العلم و المدرسون المرافقين لقوافل الحجيج أو التجار ، ومن بين السلع المصدرة من الشمال نحو الجنوب نجد الكتاب المستورد من الشرق الإسلامي على الخصوص وأيضا من المغرب .

وقد كان لسكان الهقار دورا هاما في تنمية و تطوير التبادل التجاري بتهيئة الأجواء المناسبة بتوفير الأمن والماء إلى جانب حسن المعاملة وكرم الضيافة ، فكانوا يفيدون

ويستفيدون منها ،بتنشيط التجارة المحلية وتزويد السكان بما يحتاجونه من مواد وسلع ،إلى جانب المساهمة في خلق فرص التشغيل ، وأيضا ترقية الذوق في الاستهلاك و تنويعه .

وإلى جانب التواصل التجاري- الاقتصادي بين الشمال والجنوب والعكس صحيح ، كان هناك التواصل العلمي الثقافي الحضاري وعلى الخوص منذ انتشار الإسلام بشمال إفريقيا فكان يرافق هذه القوافل التجارية قوافل الحجاج أيضا وطلبة العلم و الأساتذة والمدرسون من الجنوب إلى الشمال ومن الغرب إلى الشرق والعكس صحيح أيضا.

وكان لهذا التواصل بين الشمال و الجنوب آثاره الإيجابية وعلى الخصوص في انتشار المعارف الصحيحة وازدهار الثقافة والعلوم الإسلامية واللغة العربية وانتشـــار الإســـلام، و يعود الفضل في ذلك إلى الدور الذي لعبه التجار في غرب أفريقيا في عهد مملكة غانا التي امتاز حاكمها بالتسامح إلى حد أنه استعان بعدد من المسلمين و قلدهم مناصب عليا في القصر الملكي لمعرفتهم القراءة والكتابة.مما ساعد على ازدهار الإسلام و انتشاره بالمملكة وازدياد عدد المسلمين إلى درجة أن كان لهم في العاصمة كومبي صالح وحدها أثنا عشر **(12)** مسجدا ، وهو ما لاحظه أحد الكتاب الغربيين وعلق عليه بقوله :" أن الإسلام لم يأت إلا بكل جيد وطريف في هذا المجال ،وبذلك فقد طور الحياة الحضارية وطبع بطابع عميق التاريخ الإفريقي منذ ذلك الحين" .[3]

لكن هذا التواصل التجاري و الحضاري عرف تراجعا منذ القرن التاسع عشر ميلادي على الخصوص فأصبح سكانها من الجنوب نحو الشمال تحت رحمة الاستعباد الرأسمالي الذي بدأ في نشر سموم ومفاسده وشروره و عاداته السيئة ومنها الخمور التي روج لها وشجع على استهلاكها ، فأصبحت أحد منافذ ووسائل التأثير على الإفريقي من أجل تدمير ثقافته و عاداته وتقاليده وتمسيخه . وعن هذا كتب أحد الكتاب الغربيين يقول:"من بين السلع المصدرة من أوروبا إلى إفريقيا جريمة الجرائم الكحول."[4]

الغزو الأوربي وعواقبه :

ومع وقوع الجزائر تحت براثن الاستدمار الفرنسي عام **1830** ،وقبلها السنغال منذ نهاية القرن الرابع عشر ميلادي ، ومع التطور الاقتصادي الاجتماعي – والسياسي الذي

شهدته الرأسمالية في أوروبا الغربية و الوسطى منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ،تسارعت وتيرة الزحف للاستيلاء على إفريقيا فكان احتلال تونس في ماي **1881** ،ثم المغرب عام **1912** ،أما بالنسبة لبلدان جنوب الصحراء ومنها الغربية ،فقد زحفت إليها القوات الفرنسية انطلاقا من السنغال منذ منتصف القرن التاسع عشر في عهد فيدارب [5] .ونفس السيناريو تكرر مع الاستدمار البريطاني انطلاقا من قواعده على سواحل غرب إفريقيا وشرقها ،وفي مؤتمر برلين الثاني **1884– 1885** تم اقتسام ما تبقى من أراضي وتسوية الكثير من الخلافات والمشاكل العالقة ،وهذا ما سمح للفرنسيين الدخول في مفاوضات مع البريطانيين لإزاحة العراقيل التي واجهتهم في منطقة حوض النيجر من خلال اتفاق عام **1890** الذي تخلى بموجبه الفرنسيون عن أسفل النيجر للإنجليز ،فأصبح بذلك شمال الحوض في مأمن من أطماع دولة أوروبية أخرى ،الأمر الذي سمح للفرنسيين بتسخير كل طاقاتهم و إمكاناتهم من أجل ربط ممتلكاتهم في شمال الصحراء مع ممتلكاتهم بالجنوب .وعلى الخصوص بعد سقوط مدينة تومبوكتو بوابة الصحراء بأيديهم في نهاية عام **1893** فزحفت قوات هامة من شمال السودان نحو أقصى الجنوب الجزائري بقيادة الملازم الأول جيروزاليمي **Jérusalemy** انطلاقا من منطقة رأس الماء ، في حين أن قوات القائد لابيرين **La Perrine** واصلت تقدمها انطلاقا من عين صالح ، ليلتقي الطرفان بمنطقة تيمياوين في عام **1904** [6].

لقد كان لسيطرة الغزاة الفرنسيين على الصحراء الكبرى وربط شمالها بجنوبها نتائج وعواقب مازالت تتفاعل إلى حد اليوم ، منها :

- انهيار التجارة العابرة للصحراء.
- تلاشي فرص العمل و النّشاط التي كانت توفرها التجارة العابرة للصحراء.

وانتشار البطالة والفقر وسوء التغذية و المجاعات و الأمراض.

- استبدال تجارة القوافل بالدكاكين والمغازات أدى إلى دخول عناصر جديدة زاحمت سكان المنطقة الغير متعودين على مثل هذا النشاط .
- تغيير وسائل الدفع من المقايضة إلى التعامل بالنقود ، أدى إلى إبعاد سكان الصحراء

وتهميشهم ،وسيطرة الفرنك الفرنسي التي لا تزال إلى يومنا هذا متواصلة من خلال عملة الأورو على الفرنك الإفريقي .

تزايد الوفيات بسبب الفقر وسوء التغذية، وتدهور الأوضاع الصحية والنتيجة كانت تناقص عدد السكان. وقد سجل ذلك سباتيي أحد المختصين في شؤون المناطق الجنوبية ، فعدد سكان واحات قورارة وتوات تيديكلت كان في حدود أربعمائة ألف **(400.000)** نسمة عند منتصف الثمانينيات من القرن التاسع عشر ليصبح عددهم عام **1906** لا يتجاوز الستين ألف **(60.000)** نسمة معظمهم لا يجد ما يسد به رمقه .[7]

– ثقل الأعباء المالية المفروضة على السكان من خلال الضرائب و المكوس المختلفة وعلى الخصوص الضريبة العربية التي بلغت مداخيلها أكثر من ثلاثة أرباع **(4/3)** الموارد العامة للمنطقة عام **1904** بحيث بلغت **1.966515**مليون فرنك أي**78 %** من مجموع الموارد العامة من ضرائب ومداخيل لنفس العام والمقدرة ب:**2.519140** مليون فرنك[8]

. انتشار وتفشي الأمية والجهل، بسبب منع التعليم العربي الإسلامي ومحاربة اللغة العربية ومنع دخول الكتب والمدرسين والمعلمين القادمين من الشمال وعلى الخصوص من القرويين بالمغرب ومن الزيتونة بتونس .

. غلق الكثير من المدارس والزوايا والكتاتيب ونفي وتهجير المدرسين والمعلمين والعلماء، وإخضاع ما بقي للمراقبة.

. تشجيع الشعوذة والبدع والخرافات البعيدة كل البعد عن الإسلام ،وهي إحدى أدوات الغزو الفكري والثقافي والنفسي التي استخدمها خبراء الشؤون الاستدمارية من أجل الهيمنة على الأرض و العباد .

. إدخال التعليم أللائكي الفرنسي الذي أدى إلى زعزعة الثقافة المحلية وزحزحتها وإدخال الكثير من الأفكار الغربية المناقضة للأفكار والمبادئ العربية الإسلامية الأمر الذي أدى إلى انشطار المجتمعات المحلية مابين الملتزمين والمدافعين عن الخصوصية المحلية من جهة، ومابين المتأثرين والمدافعين عن الثقافة الغربية الاستدمارية، مما تسبب في تعطيل دواليب التنمية المحلية والنهوض بالمجتمعات لإخراجها من التخلف وتخليصها من التبعية للغرب.

. تفكيك الروابط العائلية القبلية بالتهجير والنفي من منطقة لأخرى، وتجريدها من ممتلكاتها وإجبارها على النزوح إلى مناطق بعيدة عن موطنها.إضافة إلى تشتيت العائلات القاطنة على الحدود التي وضعها الاستدمار في إطار سياسة" فرق تسد " وإخضاع تنقلاتها واتصالاتها للرقابة العسكرية.

العلم في خدمة الغزو والهيمنة :

لقد كان العلم أحد الوسائل الهامة التي سخرها الغزاة لاجتياح المنطقة وفرض هيمنتهم عليها وعلى الخصوص منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر مع بدايات الثورة الصناعية، وضعوا على إثرها خططا وبرامج طويلة الأمد لنهب وتسخير واستغلال ثروات المنطقة [9]،مستغلين في ذلك التطور العلمي والتقني الذي وصلت إليه أرويا آنذاك ،عكس ماكانوا يدعون ويروجون له .فالتطور العلمي كان ومازال وسيبقى وسيلة للهيمنة والسيطرة في إطار الاستدمار الجديد الذي يعمل على استغلال ثروات المنطقة بتسخيره كل الوسائل الممكنة ، وأكثر من ذلك فقد صدرت دعوات في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي لامتلاك المنطقة وتأميمها لتصبح أرضا فرنسية ،كما فعل الأمريكيون مع آلا سكا [10].

يضاف إلى كل هذا توظيف التطور العلمي في مختلف العلوم لتطبيق وتنفيذ "سياسة فرق تسد " من أجل تفكيك الوحدة الوطنية وبذر الشقاق بين الإخوة ، وهو ما ألح عليه أحد المنظرين الاستدماريين في منتصف القرن التاسع عشر بقوله :"إن العلم هو أحد هذه الأسلحة وأول سلاح ينبغي توظيفه لأنه هو الذي سيعمل على تعبيد الأرضية التي يتعين الزحف إليها "[11] .و في هذا الإطار يندرج نشاط ما يسمى " البعثات العلمية و الجغرافية و رجال الدين الذين أرسلوا إلى الصحراء منذ نهاية القرن الثامن عشر.

لقد ارتحل هؤلاء إلى الصحراء وعبروها وتكبدوا الصعاب والمشاق وخاطروا بأنفسهم من أجل الوصول إلى جمع كل المعلومات التي تهم مستقبل بلدهم كل في اختصاصه وصنفوها ووضعوها تحت تصرف العسكريين، ومن هؤلاء نذكر: بول سوليلات الذي زار

عين صالح عام **1874** ثم السودان الغربي وتوج رحلته إلى المنطقة بكتاب نشره عام **1876** تحت عنوان :مستقبل فرنسا في أفريقيا[12].

لقد كان سوليلات يمثل القيم الفرنسية ، وكان يتصرف كمواطن مسئول مهتم بالمصلحة العليا للوطن فكان يرى أن الطريقة الوحيدة لأمة كبيرة متحضرة . مثل فرنسا . لزيادة نفوذها ،تكمن في استقطاب أمم متحضرة نحو هذه الأسواق ، وفي المقابل فتح أسواقهم الخاصة ، وإنتاج المواد الأولية الضرورية لتغذية مصانعها ويواصل قوله: وعليها أن تفرض عن طريق الاتصال والمنافع التي يجلبها لها ، حضارتها وعاداتها. وهكذا يتكون" غزو دائم"، إذا لم يتم ترسيخه بالدم...و بصراحة يدعو بلده إلى احتلال المنطقة بقوله: وهكذا سلميا، على فرنسا أن تذهب بخطوة جريئة و أكيدة نحو غزو الصحراء والسودان [13].

إن دعوة سوليلات لنشر الحضارة الفرنسية وفرض سيطرتهم على المنطقة من أجل الغزو الدائم يشاطره فيها الجاسوس شارل دي فوكو **(1853-1916)** الذي قدم خدمات جليلة لزميله لابيرين وساهم بقسط كبير في تهيئة الجو المناسب للتوسع الفرنسي في الصحراء وعلى الخصوص الهقار والتاسيلي بجمعه لمعلومات كثيرة تخص أوضاع المنطقة وسكانها من جميع النواحي من أجل تعبيد الطريق للعسكريين الذين سوف يتبعونه وعن هذا يقول:" أبذل كل ما في وسعي لتحضير كل الطرائق الوسائل للآخرين ،راجيا من يسوع المسيح (عيسى)عليه أن يرسلهم "[14] .

إن التنسيق الذي كان بين الجاسوس دي فوكو وقائد الواحات الصحراوية هنري لابيرين لا غبار عليه ، وعلى الخصوص أثناء الحرب الأوربية الأولى **(1914-1918)** بعد توسع جبهة القتال إلى شمال إفريقيا وانطلاق المقاومة السنوسية فأثناء هذه الأحداث كان هناك تنسيق تام بين دي فوكو ولابيرين ،فخلال عامي **1915** و **1916** أرسل دي فوكو إحدى وأربعين **(41)** رسالة إلى صديقه لابيرين يبلغه فيها عن كل المستجدات في المنطقة[15].

وتحت غطاء النشاط الخيري والعلاج و الدعوة إلى المسيحية تمكن دي فوكو من كسب ولاء بعض الزعماء إلى جانب فرنسا ، وبذلك تم تقسيم قبائل المنطقة مـــا بيـــن

مهادن ومتعاون مع **الفرنسيين**، ومعاد لهم في إطار سياسة التهدئة.

إن نشاط وأعمال **دي فوكو** بالمنطقة كان في إطار بسط سيطرة الفرنسيين على المنطقة و تثبيت" **الغزو الدائم**" الذي تكلم عنه بول سوليلات ، والمقصود به " الاستدمار الجديد "**الذي هو** امتداد للاستدمار القديم الذي يعتبر اللغة والأفكار من بين أهم وسائل التأثير **والسيطرة** عن طريق التعليم والاحتكاك اليومي بالأهالي المسلمين إلى جانب الأنشطة الأخرى ، **وهو** ما ركزت عليه الجمعيات التنصيرية التمسيخية من أجل إخراج إبعاد وصرف **المسلمين** عن الإسلام ليصيروا هدفا سهلا للتمسيخ ، و هو ما عبر عنه في إحدى رسائله **إلى أحد** أصدقائه في **04** جوان من عام **1908** قائلا :" أن كل البلد تمت تغطيته بالرهبان و **الراهبات** و أن عددا لابأس به من المسيحيين يبقون وسط المجتمع للاحتكاك مع هؤلاء **المسلمين** الفقراء لتقريبهم رويدا رويدا ، لتعليمهم ،لتمدينهم ، وأخيرا عندما يصبحون **رجالا** ندخلهم إلى المسيحية.

و يواصل قوله: بكل **الوسائل** التقرب منهم، الاحتكاك بهم، ربط صداقات معهم وانتزاع منهم . من خلال **العلاقات** اليومية والودية . شكوكهم حولنا بالحوار وبنموذج حياتنا، وتغيير أفكارهم **بإدخال** التعليم بالمعنى الدقيق للكلمة و التربية الشاملة لهذه الأرواح. تعليمهم عن طريق المدارس و الكليات ما يمكن تعلمه في المدارس و الكليات، و تلقينهم بالاتصال اليومي الودي ما نأخذه من العائلة، يجب أن نصبح عائلتهم "[16].

لقد لعب دي فوكو دورا كبيرا في الترويج للسياسة الفرنسية بالمنطقة ومشاريعها ، ونشر لغتها وثقافتها ، ومن ثم **تثبيت** سيطرة الفرنسيين على المنطقة ، وهوما يؤكده ارنست بسيكاري **Ernest Psichari**

بقوله :" أجهل عدد المسلمين الذين استدرجهم المحترم والشهير دي فوكو لاعتناق المسيحية في الصحراء لكنني متأكد أنه عمل من أجل تثبيت سيطرتنا في البلاد بصورة مطلقة للإداريين المدنيين و العسكريين "[17] .

من الغزو والنهب والسيطرة إلى التدجين والتمسيح :

إن سيطرة الفرنسيين على الصحراء كان مقدمة لسيطرة من نوع آخر وهي السيطرة على العقول والقلوب و الأرواح وغزوها وتمسخيها ،و القضاء بذلك على خصوصيات و مميزات شعوب المنطقة من لغة ودين وعادات وتقاليد ومن ثمّ ربطهم بالضفة الشمالية للمتوسط لغويا وثقافيا ودينيا إن أمكن ذلك ،وهو ما يوضحه دي فوكو بقوله :" هذه السيطرة السياسية المؤسسة على الغزو العسكري ،يجب أن تكون تحضيرا لغزو العقول ، ومع طول الأمد تدجين القلوب و الأرواح (النفوس)نحو حقائق المسيحية "[18] .

و دي فوكو بخبراته وتجاربه ،وتجارب الذين سبقوه يدرك صعوبة عملية إدخال المسلمين في المسيحية ، وعليه يرى أنه لإنجاح المشروع يجب أولا :تعليمهم وتكوينهم وتربيتهم على اللغة والثقافة والعادات والتقاليد الفرنسية ثم في الأخير التنصير ،وعن هذا يقول :" ...الطريق الوحيد الممكن هو الآخر بطيء جدا :التثقيف و التمدين أولا، التنصير فيما بعد "[19]

إن هدف الاستدماريين الفرنسيين كان العمل على تقريب المجتمعات الإفريقية من المجتمع الفرنسي ، بنشرهم اللهجة الفرنسية والعادات والتقاليد الاستهلاكية ، وفي المقابل محاربة الدين الإسلامي[20].واللغة العربية، من أجل جعل المنطقة امتدادا لها ، وهو ما عمل على تحقيقه دي فوكو المهتم بمصلحة بلاده داعيا الجميع إلى ضرورة تحقيق هذا الهدف من خلال الحكم الجيد ،وقد شرح ذلك بقوله :"إذا كان حكمنا جيدا هذه الإمبراطورية ستكون في خمسين**(50)** سنة امتدادا لفرنسا ، ويلاه إذا كان حكمنا لها سيئا ، أي بمعنى إذا كنا نستغل بدل أن نمدن و نستوعب(ندمج) ونفرنس هذه الإمبراطورية الرائعة ستفلت منا بالكامل "[21].

ومن أجل تثبيت أقدامهم في المنطقة وضمان وجودهم على المدى البعيد، واستغلال ثرواتها ومواردها وضع الاستدماريون برامج وخطط من أجل التوغل في أعماق المجتمع معتمدين في ذلك على بعض الفئات المحلية التي أعلنت ولائها للسلطات الجديدة منذ دخول القوات الغازية من أجل خدمة مصالحها و الاحتفاظ بنفوذها ، وهذه الفئات هي

التي استفادت من مختلف المشاريع التي أنجزها الاستداريون في مختلف الميادين وعلى الخصوص التعليم[22]،من أجل تكوين وتخريج وكلاء ومساعدين ومأمورين يساعدونهم في تسيير شؤون الأهالي، وأيضا يكون هؤلاء وسيلة للهيمنة و السيطرة والتأثير على الأهالي ثقافيا وسياسيا بنقل القيم و العادات الفرنسية نحو الأهالي،و هو ما توضحه فاني كولونا،بقولها:"...هؤلاء هم الوسطاء الضروريين بين السلطة الاستعمارية (الاستدمارية)والمجتمع المهيمن عليه ،أنهم يشغلون وظيفة تقنية لكن أيضا واسطة ثقافية وسياسية ...و لكن أكثر من هذا ترى الإدارة أنه ليس من واجبها تكوين موظفين مأمورين، لكن أيضا تفكر في إمكانية التأثير على المجتمع المهيمن عليه بواسطة هؤلاء الوكلاء[23].

أما موريس بولارد فيذهب أبعد من ذلك بتوضيحه لأهداف وخطط الاستدمار فيما يخص المهام الموكلة لهؤلاء الوكلاء والمأمورين في تمسيخ المجتمع نيابة عن مرشديهم فيما بعد (أي بعد خروجهم) بقوله :" ...لكن إذ لا يمكننا تدمير المساجد ولا إلغاء في الحين قانون الأحوال الشخصية الإسلامي ،ولا فرض بالقوة اللغة الفرنسية على الأربعة ملايين رعية .فنحن مجبرون أن نترك لهم رجال دين (أئمة) قضاة و علماء يتصرفون نيابة عن مرشديهم لتحويل شيئا فشيئا المجتمع المسلم ومع الوقت ، توجيهه نحو لغتنا ، نحو قضائنا ،نحو عاداتنا ، و أيضا خياراتنا الدينية و الفلسفية "[24].

إن نتائج الغزو والمسخ الذي أحدثته المؤسسات الاستدمارية الفرنسية المختلفة في المنطقة في إطار مخطط الاستيعاب(أو الفرنسة)من أجل توسيع إمبراطوريتها ومصالحها المختلفة في مختلف المجالات وصل إلى درجة خطيرة جدا مست عمق شخصية وكيان خريجي هذه المؤسسات مما جعل الكثير من هؤلاء يعتبرون أنفسهم فرنسيين ، بل فرنسيين أكثر من الفرنسيين أنفسهم ، فانبروا للدفاع عن أمهم الحنون .و هو ما توضحه رسالة أحد هؤلاء الممسوخين التي كتبها إلى أصدقائه قبل مغادرته أرض أفريقيا للتطوع في صفوف القوات الفرنسية رغم أنه كان معفيا من الخدمة العسكرية ، وأكثر من ذلك فإن السلطات الفرنسية رفضت منحه رتبة ضابط مثل زملائه الفرنسيين الذين كانوا يحملون نفس الشهادة العلمية . فيقول في رسالته :" في هذا اليوم ،وفي هذه الساعات الخطيرة

بالذات التي أصبحت فيها حرية الأمم الديمقراطية مهددة ، فإن حزبنا قد أوقف جميع أنشطته السياسية لكي يتفرغ نهائيا للدفاع عن سلامة الأمة التي ارتبط بها مستقبلنا ،ذلك أنه إذا انهارت قوة فرنسا الديمقراطية فإن أملنا في الحرية سيقبر إلى الأبد . إننا نؤكد بالأدلة على إيماننا بانتصار فرنسا و استقلالها عندنا ، و في العالم كله ...تحيا الجزائر تحيا فرنسا ..."(25).

إن المسخ الثقافي الفكري الذي أفرزته المؤسسات الاستدمارية المختلفة على الأهالي بلغ درجة خطيرة جعل الكثير من المتخرجين منها يتنكرون لتاريخهم ولبلدهم و لحضارتهم وعدم الاعتراف بوجوده كما هوحال أحدهم القائل :"فرنسا هي أنا "(26). كما أن هناك من عبر عن رغبته ورغبة أمثاله في بقاء فرنسا ورفض خروجها ، وأكد على عجزه القيام بأي شيء من دون فرنسا ، كما هو شأن لمين قاي من السنغال القائل:" سنتمكن من عمل كل شيء من خلال فرنسا ،كل شيء من خلال الجمهورية ، لكن لا شيء بدون فرنسا ،لا شيء بدون الجمهورية "(27).

لقد عمل الفرنسيون منذ دخولهم المنطقة على تشويه و تمسيخ التراث الثقافي . الحضاري لشعوب المنطقة ، وعملوا على أن يخلقوا فيهم مركبات مضاعفة تجعلهم يتنكرون لقيمهم ودينهم وتاريخهم ،وجعلهم ينسلخون عن مجتمعاتهم و شعوبهم، و الوصول إلى درجة أن يصبحوا فرنسيين أكثر من الفرنسيين أنفسهم .وعن هذا يقول أحمد سيكوتوري :"أن التعليم الذي أعطونا إياه لم يكن يتجه فقط إلى تمثلنا وإذابة شخصيتنا ، وإضفاء الطابع الغربي علينا ، وإلى أن يقدم لنا مدنيتنا ، حضارتنا ، و نظراتنا الخاصة الاجتماعية والفلسفية . باختصار ،كتعبير عن الهمجية ، ومجرد بدائية نصف واعية ، من أجل أن يخلق فينا المركبات المضاعفة التي تسعى بنا إلى أن نصبح فرنسيين أكثر من الفرنسيين أنفسهم . وإنما يوجد إلى جانب هذه الظواهر في المجال الملموس لموقف هذه الصفوة المثقفة، سلسلة مزايا وضمانات تعد أمورا غريبة تماما عن حياة أغلبية الشعب الإفريقي، وشكلت بالمقارنة لظروف الشعب الإفريقي (28)ظروفا تفضيلية" (29).

إن نتائج و آثار ما خطط له الفرنسيون و عملوا على تنفيذه، ما تزال باقية و بادية إلى يمنا هذا، فهؤلاء الوكلاء أو المتطورون ليسوا قادرين ولا راغبين في قطع صلاتهم بباريس.فالوجود الفرنسي مازال حاضرا من خلال جنودها (قواتها) في بعض الدول كساحل العاج وتشاد ، ومن خلال اللغة الفرنسية التي أصبحت لغة التواصل بين عدد كبير من دول القارة، بدلا من اللغات المحلية واللغة العربية حتى بداية القرن العشرين ،إلى جانب ربط دول المنطقة بمنظمة الفرانكفونية [30].دون أن ننسى التبعية الاقتصادية و المالية ،فمعظم المبادلات تتم مع فرنسا ، ونسبة كبيرة من الديون هي لفرنسا .

إن بقايا و آثار الاستدمار حتى بعد" الاستقلال الشكلي" مازالت بادية للعيان في مختلف المجالات ومنها التعليم بمختلف أطواره[31]. من خلال تعميم استعمال اللغة الفرنسية على حساب اللغة الأم وتعديل البرامج والمناهج التعليمية لتتلاءم مع متطلبات"الإسلام العلماني"إلى جانب مختلف التشريعات والتنظيمات القانونية ومنها قانون الأسرة كما يريده الغرب الرأسمالي ، وكذلك تغيير يومي العطلة الأسبوعية من الخميس والجمعة إلى السبت و الأحد كما فعلتها أخيرا دولة موريتانيا .

إن فشل البرامج و المشاريع لإخراج دول المنطقة من التخلف والتبعية والفقر و البطالة جعلت الكثير من الكتاب والسوسيولوجيين الغربيين بما فيهم الفرنسيون ينتقدون السياسات التي طبقتها بلادهم في المنطقة ، منهم راؤول جيراردت الذي شرح الوضعية قائلا:"إن العملية الاستعمارية(الاستدمارية)كانت دخولا رهيبا و وحشيا للحداثة . إنه لا يمكن نسيان الصدمة الثقافية المفزعة . ويواصل قوله " كم حشدا صنعنا من الممسوخين بالمعنى البارزي[32]...و ما قمنا به من إتلاف للتوازنات ، التي لم تكن فقط التوازنات الاقتصادية لكن التوازنات الحضارية." يكفي للاقتناع بذلك النظر إلى أي طالب إفريقي مبتور عن منشأه (أصوله) التقليدية [33].

إن سياسة و مخططات الاستدمار الفرنسي والأوربي عموما للمنطقة قد أدى إلى تكريس التخلف والتبعية بكل أبعادها ،فرغم مرور نصف قرن على"الاستقلال السياسي

"لمعظم دولها ،إلا أنها مازالت في المؤخرة تعيش وتتخبط في أزمات متعددة و مختلفة أعاقتها وتعيقها على الخروج من التخلف الشامل.

و السبب في ذلك دون أدنى شك يعود إلى التعليم الذي بقي كما كان عليه قبل خروج المحتل الأجنبي،

وعليه لابد من تعديل جذري لمناهج وأهداف التعليم بما يتلاءم و واقع شعوب المنطقة وثقافتها وحضارتها وذلك بتنقيته وتصفيته من شوائب الاستدمار كما دعا إلى ذلك الكاتب الفرنسي روني ديمون.

الهوامش

(1)- المقصود به هنا هو تجارة الرقيق التي عانت من ويلاتها أفريقيا ما يزيد عن ثلاثة قرون. و كان البرتغاليون الذين بدأوا هذه التجارة بوصول أول شحنة إلى البرتغال في أوت 1494من منطقة ري ودي أورو(وادي الذهب)اليوم الصحراء الغربية. وكان عددهم 235 عبدا .أما ضحايا هذا العمل اختلفت الإحصاءات والأرقام و هي محصورة في أغلبية المراجع والمصادر من 60 إلى 150 مليون نسمة. انظر في ذلك :

René Dumont:L'Afrique noire est mal partie .édition du seuil paris1962 p23.

للمزيد راجع أيضا . عايدة العزب موسى : العبودية في إفريقيا ط1 (1424هـ) 2004 م مكتبة الشروق الدولية القاهرة ص37و ما بعدها .

(2)- زبادية عبد القادر:الحضارة العربية والتأثير الأوروبي جنوب الصحراء المؤسسة الوطنية للكتاب1989ص 28

(3)- نفســه ص 51

(4)-René Dumont: op cit p23.

(5)- فيدارب Faidherbe من مواليد مدينة ليل في 06جوان 1818 ، التحق بالمدرسة المتعددة التقنيات . بعد تخرجه عمل كضابط هندسة بالجزائر ، أرسل إلى السنغال عام 1852 ، عين حاكما على السنغال في ديسمبر 1854 . رقي إلى رتبة جنرال عام 1863 . توفي في 28/ 09/ 1889 ، ترك عدة أعمال وأبحاث جغرافية و تاريخية حول أفريقيا أهمها : السنغال ،فرنسا في أفريقيا الغربية . للمزيد من التفاصيل أنظر

George Hardy : Faidherbe. Édition de l'encyclopédie de l'empire Française ; paris 1947 PP 09-40

(6)-Duboc G:l'épopée coloniale en AOF,Edgar malfère.Paris 1938 pp146-191.

(7)- د.جمال قنان: قضايا و دراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر. منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1994 ص 150 .

(8)- نفســه : ص 152- 153 .

(9)- : لقد سخر الفرنسيون بالتعاون مع بقية الدول الاستدمارية كل إمكاناتهم المادية و البشرية والتقنية من أجل استغلال ونهب ثروات المنطقة و تحويلها إلى مصانعها بأوروبا ، و من ناحية أخرى عملت على جعل المنطقة سوقا

لتصريف منتجاتها وبضائعها .و من ثم عملت على ربطها بعجلة الرأسمالية الفرنسية، وأكثر من هذا جعلت المنطقة مقبرة لدفن النفايات الملوثة، و حقل لإجراء مختلف التجارب الذرية و النووية. إلى جانب كل هذا عملت على تشجيع الهجرة الأوروبية وقدمت الحوافز والتشجيعات المادية والمعنوية للمستوطنين الأوروبيين للاستقرار بالمنطقة من أجل أن تضمن سلامة و رخاء وأمن أوروبا و شعوبها. وهو ما يوضحه أوجين غرنييه بقوله :" ... وباختصار فإن أفريقيا مجهزة سيكون بإمكانها أن تستقبل حركة هجرة أوروبية تقارب خمسة عشر (15) إلى عشرين (20) مليون نسمة ، فبنسبة خمسمائة ألف (500000) مهاجر سنويا ،سنضمن لأوروبا ثلاثين (30) إلى خمسين (50) سنة من الهدوء و الرخاء والسلام ، و منذ هذه اللحظة لن تشكل أفريقيا المدمجة بالاقتصاد الأوروبي سوى قارة وحيدة إنها القارة الأوروأفريقية ".

Eugène Guernier : pour une politique d'empire, doctrine et action .F alcane paris 1938 p55.

(10)- فالاستدمار كان ولا يزال وسيظل في إطار الاستدمار الجديد يعمل على استغلال ثروات المنطقة بتسخيره كل الوسائل التي يمتلكها.ومع التطور التكنولوجي ظهر أن المنطقة لها مستقبل واعد في مجال الطاقات المختلفة ، و لذلك ظهرت دعوات صريحة من بعض الأطراف لامتلاك المنطقة وتأميمها في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي لتصبح أرضا فرنسية ،كما فعل الأمريكيون مع ألاسكا .للمزيد من التفاصيل انظر

Emile Belime : Gardons l'Afrique. Nouvelles éditions latines paris 1955 pp 48-49.

(11)- Raymond Thomassy : le Maroc, relation de la France avec son empire ; paris 1859.

نقلا عن الدكتور أمحمد مالكي:

الحركات الوطنية و الاستعمار في المغرب العربي،مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان 1994ص 121

(12)- Le Mois en Afrique : étude politique, économiques, sociologiques africaines 21 annéeN° 239- 240 déc.1985- janvier 1986 paris p 136

(13)- IBID : p 135.

(14)- Deloncle pierre : Charles de Foucauld le prédestiné, le précurseur reboul et fils paris1946 p29.

(15)- Merad Ali:Charles de Foucauld au regard de l'islam .chalet 1976 p110.

(16)- IBID : p 103- 104.

(17)- IBID : p 113.

(18)- IBID : p 102.

(19)- IBID : p 104

(20)- لقد كان الفرنسيون يعتبرون التعليم الإسلامي العدو اللدود و الأكثر خطورة عليهم و على مستقبل وجودهم بالمنطقة، و العائق الأكبر أمام فرض سيطرتهم و نفوذهم. ولذلك تصدوا له بمختلف الوسائل و منها التعليم بإدخال القانون المدني الفرنسي في جميع البرامج. انظر في ذلك :

M.Poulard : l'enseignement pour les indigènes en Algérie ; Alger 1910p 50.

وفي نفس السياق يقول أحد تقارير المخابرات الفرنسية: لابد من القيام بحركات تمكننا من إبعاد كل تأثير إسلامي على أي عقد من عقود الحياة المدنية.

انظر: بوالصفصاف عبد الكريم :جمعية العلماء الجزائريين و علاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1931- 1945 دراسة تاريخية و إيديولوجية مقارنة . منشورات المتحف الوطني للمجاهد 1996 ص 217

(21)- Merad Ali : op cit pp 102- 103.

(22)- راجع في ذلك نداء الإمبراطور نابليون الثالث (1808- 1873) إثر صدور المرسوم الإمبراطوري القاضي بتأسيس مدرسة عربية – فرنسية في 14 مارس 1857 ، والذي جاء فيه " إلى الأغوات و الباش أغوات و القياد و الشيوخ وكل الموظفين الأهالي ،في أن يرى أبنائهم يدخلون المدرسة الجديدة . للمزيد انظر:

M.poulard : op cit p 78.

(23)- Fanny Colonna : le système d'enseignement de l'Algérie coloniale archives européennes De sociologie tome 13, 1972 n°02 Plon paris pp 212-213

(24)- M. Poulard : op cit p 138

(25)- عبد الكريم بو الصفصاف :مرجع سابق ص 264

(26)- أبو القاسم سعد الله :الحركة الوطنية الجزائرية ج3 1930- 1945 ط 4 دار الغرب الإسلامي بيروت 1992 ص72

(27)- Elika M'bokolo : le continent convoité.OPU Paris -Montréal 1980 p113.

(28)- إن أجور وامتيازات المستخدمين في إفريقيا تلتهم أكبر جزء من ميزانيات هذه الدول ، وهي استمرار للفترة الاستدمارية . للمزيد انظر :

Robert Delavignette : du bon usage de la décolonisation ; Casterman 1968 pp52 -55.

غم الظروف الصعبة التي تعيشها شعوب أفريقيا وما تعانيه من فقر وسوء التغذية ومجاعات ونقص في هياكل التعليم والصحة إلى جانب المديونية التي ترهق كاهل شعوبها إلا أن الكثير من المسئولين والإطارات يسرفون كثيرا في المصاريف و النفقات إلى حد التبذير ، و مثال ذلك زوجة الوزير الأول في الكونغو الديمقراطي (الزائيرسابقا) أدولف موزيتو ، يقوم على خدمتها ستة و ثلاثين(36) شخص . أما هو فيقوم على خدمته في إقامته الخاصة خمسة وخمسين (55) عنصرا ، إلى جانب واحد وعشرين (21) سائقا و العشرات من المستشارين والمكلفين بالدراسات . انظر في ذلك :

Afrique Asie mensuel ; septembre 2009 p 07.

وهناك مثال آخر نورده، فرغم ما تعانيه كينيا من فقر ومجاعة تهدد حوالي عشرة ملايين (10000000) شخص، و نسبة كبيرة من المجتمع يعيش بأقل من دولارين في اليوم مع الارتفاع الفاحش لأسعار المواد الغذائية، إلى جانب الفساد المالي والرشوة...هذا كله لم يمنع الحكومة الكينية من تعيين ثلاثة وتسعين(93) وزير و نائب وزير، ودفع مبلغ مائة و أثنين وثلاثين ألف (132000) دولار للنواب.

Afrique Asie mensuel ; avril 2009 p 43

(29)- جاك ووديس : جذور الثورة الإفريقية . ترجمة أحمد فؤاد بلبع ، الهيئة العامة المصرية للتأليف 1971 ص 403 .

(30)- إن العقدة الثقافية اللغوية التي خلفها الاستدماريون و التي تدرج ضمن ركائز الاستدمار الجديد قد أتت أكلها بإنشاء منظمة الفرانكفونية بمبادرة ودعم ومساهمة هؤلاء الممسوخين الذين احتضنوها وتبنوها ودافعوا عنها في مختلف مراحل حياتهم ، وبعد رحيلهم تركوها لخلفائهم و ورثتهم وعلى رأسهم ليوبولد سيدار سنغور الرئيس السابق للسنغال ،و الرئيس السابق لتونس الحبيب بورقيبة ،الذي تبنى هذه الفكرة منذ وقت مبكر،و قد أفصح عن هذا في خطاب له

وجهه إلى الشبيبة الفرانكفونية في 30 / 12/ 1968 ،بقوله :" يمكن لفرنسا أن تكون فخورة بأنها أوجدت عند الكثير من الشعوب التقدير و الاحترام و المحبة لثقافتها ولغتها . الفرانكفونية هي مغامرة عظيمة التي من أجلها ناضلت ومازلت أناضل بعد ثلاثين سنة من الكفاح ضد الاستعمار لأنه ليس لدي أي عقدة لأقول إن الاستعمار لم يكن له إلا مظاهر سلبية .بالعكس في بعض البلدان الأخرى مثل كندا حيث الجماعة الفرنسية التي هاجرت و حافظت على لغتها الأم وثقافتها حتى بعد انسحاب الشرعية الفرنسية، تونس حالفها الحظ و بعض الظروف التاريخية أنها تعلمت اللغة الفرنسية.

لقد رأينا بعد الاستقلال أنه من فائدتنا ليس فقط الاحتفاظ بها ،لكن تطوير تعليمها ، لأن هذه اللغة قد شكلت خلال كفاحنا من أجل التحرر، وتبقى للمستقبل بامتياز أداة للتطور و التواصل المثمر ،ليس فقط مع فرنسا لكن مع العديد من البلدان الأخرى . وهذا لا يتعارض مع ثقافتنا العربية الإسلامية، التي تملك قيمها الخاصة وهي ذات شأن ، و التي تشكل عنصرا أساسيا في شخصيتنا.

Serge Bernstein: la décolonisation et ses problèmes, Armand colin 1969 p 78.

(31)- و هو ما لاحظه الكاتب روني ديمون . ولذلك دعا إلى تخليص وتنقية التعليم من شوائب الاستدمار . للمزيد انظر :

René Dumont : op cit p186.

(32)- نسبة إلى موريس باريز Maurice Barrès(1862 – 1923) سياسي وكاتب فرنسي صاحب رواية في هذا الشأن ألفها عام 1897 تحت عنوان :المسوخون Les Déracinés .

و الممسوخ: هو ذلك الشخص الذي قطع صلاته ببلده الأصلي. انظر في ذلك :

Grand Larousse encyclopédique tome 01 Libraire Larousse Paris 1960

وأيضا

Grand Larousse encyclopédique tome 03 Libraire Larousse Paris 1961

(33)- Le Tiers Mondisme en question. Sous la direction de Rony Bruman président de médecin sans frontières ; Oliviers Orban paris 1986 p 32.